الدرس الثاني : ارتباط اللغة بالمجتمع (نصوص من كتاب اللغة والمجتمع لعبد الواحد وافي)

د. عبد الحميد بوفاس – المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف ، ميلة.

يشير عبد الواحد وافي إلى خصائص الظواهر الاجتماعية ، مركّزا على ثلاث ، وهي : [i]

- توفرها على نظم عامة يشترك في اتباعها أفراد مجتمع ما، ويتخذونها أساسا لتنظيم حياتهم الجمعية وتنسيق علاقاتهم.
- لا يمكن اعتبارها فردية ، فهي من صنع طبيعة الاجتماع ، أي ما يمكن أن نعتبره من نتاج العقل الجمعي.
- خروج الأفراد على أي نظام منها ، يواجه من المجتمع نقدا ومقاومة ، بل قد يترتب عن ذلك عقاب مادي أو أدبي ، كما يعتبر ذلك الخروج في الأعمال ضربا من العبث.

وإذا قمنا بإسقاط الخصائص السابقة على اللغة ، نجدها تتوافر فيها، و تنطبق عليها:

فاللغة ليست من صنع الأفراد ، وإنّما تخلقها طبيعة الاجتماع ، و تنبعث عن الحياة الجمعية . فكل إنسان يجد نظاما لغويا متوارثا يكتسبه من المجتمع عن طريق المحاكاة والتعلّم .

وعليه فإنّ أي خروج عن قواعد اللغة وأنظمتها ممّا هو متعارف عليه ، يعرّض صاحبه للنقد والمقاومة ، ويضطر إلى العودة والانصهار في ذلك النظام اللغوي ، لأنه لن يحظى بالقبول إلا في ظل ما رسمته الجماعة واتفقت عليه." فإذا أخطأ فرد في نطق كلمة ما ، أو استخدامها في غير مدلولها، أو خرج في تركيب عبارته عن القواعد التي ترسمها لغته، كان حديثه موضع سخرية وازدراء من مستمعيه، ورموه بالغفلة والجهل، و قد يحول ذلك دون فهمهم لما يريد التعبير عنه." [ii]

فاللغة شأنها شأن باقي النظم الاجتماعية ، لا يتحكّم فيها الهوى أو الصدف ، ولا تخضع أيضا لإرادة الأفراد ، وإنما تخضع في سيرها لقوانين ثابتة مطّردة.[iii]

وإذا كانت اللغة تتأثر في تطورها بعوامل عديدة ، منها ما هو اجتماعي ، وما هو أدبي ، وما هو طبيعي ، وما هو لغوي ، يعود إلى طبيعة اللغة نفسها، فإننا سنقتصر على العوامل الاجتماعية، والتي نوضحها فيما يلي :[iv]

- تأثّر اللغة بحضارة الأمة ونظمها وعاداتها وتقاليدها ، وعقائدها، واتجاهاتها العقلية والروحية، وعليه فإن أي تغيير يحدث في ناحية من النواحي السابقة إلا وظهر في بنية اللغة. فتطور حضارة الأمة وانتقالها من مرحلة إلى أخرى ، تنجم عنه حاجات جديدة ، ومبتكرات وإبداعات ، يعبّر عنها بقاموس لغوي جديد يستوعب ذلك التطور ، وتلك التكنولوجيا . ولعلّ في انتقال المجتمع العربي من الجاهلية إلى الإسلام خير دليل على ذلك ، حيث عبّرت اللغة العربية عن الدستور الجديد وهو القرآن الكريم ، ورسمت معالم الحياة الجديدة بمفردات جديدة وأساليب راقية مهذّبة ، خالفت في جوانب منها ما كان من باب الطيش والسفاهة والعصبية .

- إن طبيعة النشاط الاقتصادي في مجتمع ما ، يؤدي بالضرورة على اختلاف اللغة المستعملة فيه عن لغة مجتمع آخر ، فطبيعة الإنتاج والنظم الاقتصادية تطبع اللغة بنوع النشاط السائد في المجتمع من زراعة أو صناعة أو تجارة أو صيد ، أو غير ذلك من النشاطات الممارسة.

- إن جنوح المجتمع إلى السّلم أو الحرب، وكذا نظم السياسة والتشريع والقضاء والأسرة والتربية والأخلاق ، كلّ ذلك يطبع اللغة بطابعه الخاص ، ويصبغ اللغة بصبغة خاصة في بنيتها الصوتية أو الإفرادية أو التركيبية أو النحوية أو الدلالية أو الأسلوبية.

- اختلاف اللغة من مجتمع إلى آخر ، بل اختلافها داخل المجتمع الواحد الناطق بها ، من خلال وجود ظاهرة اللهجات ، أصدق دليل على اجتماعية اللغة . وذلك راجع لاختلاف العادات والتقاليد بين أبناء المجتمع ، بل بين أبناء المنطقة الواحدة. ويظهر ذلك الاختلاف في مستويات اللغة .

[i]– عبد الواحد وافي : اللغة والمجتمع، ط(01)، شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع ، الرياض ، 1983 م، ص/05.

[ii]– المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[iii] – عبد الواحد وافي : اللغة والمجتمع، ص/6.

[iv]– المرجع نفسه، ص/13 ، 14، 15.